الباب الخامس عشر

بوذا

الفصل الأول

الزنادقة

المتشككون — العدميون — السوفسطائيون — الملحدون — الماديون — ديانات بغير إله

إن أسفار اليوپانشاد نفسها تدل على أنه قد كان بين الناس متشككون حتى فى أيام اليوپانشاد ؛ فقد كان الحكماء أحياناً يسخرون من الكهنة ، مثال ذلك فى سفر « شاندوجيا » من أسفار اليوپانشاد ، تشبيه لرجال الدين المتشددين فى تمسكهم بالعقيدة إذ ذاك بموكب من الكلاب أمسك كل منها بذيل سابقه ، وهو يقول فى ورع : « أم ، دعونا نأكل ، أم ، دعونا نشرب[1] » ؛ وفى سفر « سواسانْفِيدْ » من أسفار اليوپانشاد تصريح بأنه لا إله ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا تناسخ ، ولا عالم ؛ وأن أسفار الفيدا واليوپانشاد ليست إلا تأليفاً من عند جماعة من الحمقى المغرورين ، وأن الأفكار أوهام والألفاظ كلها باطلة ، وأن من تخدعهم العبارات البراقة يتمسكون بالآلهة ، وبالمعابد ، و « بالقديسين » مع أنه لا فرق فى حقيقة الواقع بين « فشنو » (الإله) وبين كلب من الكلاب[2] ؛ وإن قصةً لتُروى عن « ڤيروكانا » الذى عاش اثنين وثلاثين عاماً تلميذاً للإله العظيم « براچاپاتى » نفسه ، وأنه تعلم علماً كثيراً عن « النفس التى خلصت من الشرور ، والتى لا تشيخ ، ولا تموت ، ولا تحزن ، ولا تجوع ، ولا تظمأ والتى لا ترغب إلا الحق » ، ثم عاد « ڤيروكانا » بغتة إلى الأرض وطفق يعلم

الناس هذا المذهب الآنى . الذى هو فضيحة الفضائح : « حياة الإنسان إنما تسعد هاهنا على الأرض . ونفس الإنسان لا بد من إشباع رغباتها ، فمن استطاع أن يُسعد نفسه على هذه الأرض ، وأن يشبع رغبات نفسه ، كسب الدارين معاً ، هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة[٣] » ، وإذن فقد يكون البراهميون الصالحون الذين صانوا تاريخ بلادهم ، قد خدعونا قليلا حين أفهمونا أن نزعة التصوف والتقوى بين الهندوس كانت عامة لم يشذ عنها أحد .

والحق أنه كلما كشف لنا البحث العلمى عن شخصيات لم تكن فى المنزلة العليا من احترام الناس ، ممن اشتغلوا بالفلسفة الهندية قبل بوذا ، ارتسمت لنا صورة تبين لنا إلى جانب القديسين السابحين فى تأملاتهم عن إلههم « براهما » ، طائفة من الأشخاص احتقرت الكهنة وشكت فى الآلهة ، وسميت — دون أن ترتاع لهذا الاسم — سميت بطائفة « اللاأدريين » و « العدميين » ؛ فتلا رفض « سانجايا » اللاأدرى أن يثبت أو أن ينفى الحياة بعد الموت ، وتشكك فى إمكان حصول الإنسان على العلم اليقينى ، وحصر الفلسفة فى محاولة استتباب السلام ؛ كذلك أبى « پورانا كاشيابا » أن يعترف بالفوارق الخلقية ، وعلّم الناس أن الروح عبد للمصادفة لا يملك لها دفعاً ؛ وذهب « ماسكارين جوسالا » إلى أن القدر قد خط فى لوحة كل شىء يصيبه الإنسان بغض النظر عما هو جدير به حقاً ؛ ورد « أچيتا كاسا كامبالين » الإنسان إلى عناصر هى التراب والماء والنار والهواء ، وقال « إن الحمقى وأرباب الحكمة يتشابهون إذا ما تحلل الجسد ، فكلاهما يزول وينعدم ولا يكون له وجود بعد الموت[٤] » ولقد صور لنا مؤلف « رامايانا » صورة نموذجية للمتشكك حين صور لنا « چابالى » الذى جعل يسخر من « راما » لأنه رفض مملكة لينى بوعد تعهد بالوفاء به :

« چابالى وهو برهمى عالم وسوفسطائى مهر فى الكلام ، تشكك فى الإيمان وفى القانون والواجب ، وراح يحدث سيد أيوذيا الشاب قائلا :

أنى لك يا « راما » هذه الحكم السخيفة التى ترين على قلبك وتكتنف عقلك .

هذه الحكم التى تضلل السذج ومن لا يتعمقون التفكير من بنى الإنسان ..؟

أواه ، إنى لأبكى من أجل هؤلاء الفانين من الناس حين يخطئون فيكبّون على واجب باطل .

ويضحون بهذه المتعة الحبيبة إلى النفس حتى تنقضى حياتهم القاحلة .

وما ينفكون يقدمون العطايا للآلهة وللأسلاف ؛ ياله من ضياع للطعام ؟ لأنه لا الإله ولا السلف يأخذ منا هذا الذى نقدمه إليه فى ولاء وتقوى !

وهل إذا أكل الطعام آكل ، تغذى به ناس آخرون ؟

فهذا الطعام تقدمونه لبرهمى ، هل يمكن له إذن أن يشبع الآباء السالفين ؟

إن الكهنة بخبثهم قد صاغوا هذه الحكم ، وهم يقولون إذ هم ينظرون إلى أغراض أنانية :

« قدّم قربانك وتب إلى الله ؛ واترك مالك الدنيوى واخلص للصلاة ؟»

كلا ، يا « راما » ليس هناك حياة آخرة ، وكلها أباطيل

هذه الآمال وهذه العقائد عند الإنسان .

فابحث عن لذائذ الحاضر ، واطرد عن نفسك هذه الأوهام العابثة الواهية(٥) .

ولما شب بوذا رجلا ، وجد القيعان والشوارع بل وجد الغابات فى شمال الهند ، تتجاوب كلها بأصداء نزاع فلسفى ، كان فى جملته ينحو نحواً إلحادياً مادياً . وإنك لترى الأسفار الأخيرة من « يوپانشاد » ، كما ترى أقدم الأسفار البوذية ملأى بالإشارات إلى هؤلاء الزنادقة(٦) ؛ فقد كان هناك طائفة كبيرة من السوفسطائيين الجوالين — ويسمونهم پاريباچاكا أو المتجولين — تنفق أحسن أيام السنة فى الرحلة من مكان إلى مكان ، باحثة لها عن تلاميذ أو معارضين فى البحث الفلسفى ؛ وبعضهم كان يعلم المنطق على أنه الفن الذى تستطيع به أن

تبرهن على أى شيء ، ولذلك أطلق عليهم بحق اسم « من يشققون الشعرة » أو « من يتلوون تلوى ثعابين الماء » ؛ وآخرون طفقوا يبرهنون على عدم وجود الله وعدم ضرورة اصطناع الفضيلة ؛ وكانت جموع كبيرة من الناس تحتشد لتسمع أمثال هذه المحاضرات والماقشات ، وبنيت قاعات لهم خاصة ، وكان الأمراء أحياناً يكافئون الظافرين فى أمثال هذه الحلبات الفكرية[٧] ؛ حقا لقد كان عصراً يدهشك بحرية فكره ، وبألوان التجارب التى أجراها أهله فى عالم الفلسفة .

ولم يبق لنا كثير مما قاله هؤلاء المتشككة ، والفضل فى خلود ذكراهم يرجع كله تقريباً إلى ما هاجمهم به أعداؤهم[٨] ، وأقدم اسم بين تلك الطائفة هو « بريهاسپاتى » لكن أقواله الهدامة قد فنيت كلها ، بحيث لم يبق لنا منها إلا قصيدة واحدة تحط من شأن الكهنة فى لغة لا يشوبها غموض الميتافيزيقا :

ليس للجنة وجود ، وليس هناك خلاص أخير ؛
فلا روح ، ولا آخرة ، ولا طقوس للطبقات ...
إن قيدا ذات الوجوه الثلاثة ، وأمر الإنسان لنفسه بلغات ثلاث ،
وهذه التوبة بكل ما فيها من تراب ورماد .
كل هذه وسائل عيش لقوم
خلوا من الذكاء والرجولة ...
كيف يمكن لهذا الجسد إذا ما أصبح تراباً ..
أن يعود إلى الظهور على الأرض ؟ وإذا كان فى وسع الشبح أن يمضى
إلى عوالم أخرى ، فلماذا لا يجذبه الحب الشديد
لمن يخلفهم وراء ، فيرجعه إليهم ؟
إن هذه الطقوس الغالية التى تقام لمن يموتون
ليست إلا وسائل عيش دبّرها

دهاء الكهنة ــ لا أكثر من ذلك ...

فما دمت حياً ، أنفق حياتك مطمئن البال

مرح النفس ؛ ليفترض الإنسان مالا

من أصدقائه جميعاً ، ويطعم نفسه بالزبد المذاب[٩] .

وعلى أساس القواعد التى أذاعها « بريهاسپاتى » هذا ، نشأت مدرسة هندوسية مادية بأسرها ، أطلق عليها اسم واحد من رجالها ، وهو « شارفاكا » وكانت أتباع هذه المدرسة يضحكون من سخف الرأى القائل : إن أسفار الڤيدا قد احتوت على الحق كما أوحى به الله ؛ وقالوا فى حجاجهم إن الحق يستحيل معرفته إلا عن طريق الحواس ؛ وحتى العقل لا يجوز الركون إليه والثقة به ، لأن كل استدلال عقلى لا يعتمد فى صوابه على الملاحظة الدقيقة والتدليل الصحيح فحسب ، بل يعتمد كذلك على افتراض أن المستقبل سيجىء على غرار الماضى ؛ واليقين فى مثل هذا الافتراض مستحيل ، كما كان « هيوم » ليقول فى الموضوع عندئذ[١٠] ؛ قال فريق « الشارڤاكا » إن ما لا تدركه الحواس ليس له وجود ؛ وإذن فالروح وهم من الأوهام ، والإله « أتمان » أبطولة من الأباطيل : إننا لا نصادف فى تجاربنا ولا فى تجارب السالفين ؛ إذ نستبطن أنفسنا ، أية علامة تدل على وجود قوى خارقة للطبيعة العالم ؛ كل الظواهر طبيعية ، ولا يردها إلى الشياطين أو الآلهة إلا السذج[١١] ؛ والمادة هى وحدها الحقيقة التى لا حقيقة سواها ؛ والجسم مجموعة من ذرات اجتمع بعضها ببعض[١٢] وما العقل إلا مادة تفكر ؛ والجسم ــ لا الروح ــ هو الذى يشعر ويرى ويسمع ويفكر[١٣] « من ذا الذى رأى روحاً موجودة فى استقلال عن الجسم ؟ » فليس هناك خلود ولا عودة إلى الحياة ؛ والدين كله تخليط وهذيان وسفسطة خادعة ، وافتراض وجود الله لا ينفع شيئاً فى شرح العالم أو فهمه ، وإذا اعتقد الناس بضرورة الدين ، فما ذاك إلا أنهم تعودوه ، ولذا فهم يحسون كأنما ضاع منهم ضائع ، ويشعرون كأنهم فى خلاء لا تطمئن

له النفوس ، حين تنمو معارفهم نمواً يهدم العقيدة الدينية[١٤] ؛ وكذلك الأخلاق أمر طبيعي ؛ فهي عرف اجتماعي ووسيلة لراحة العيش في المجتمع ، وليست بالأمر الصادر من الله ؛ والطبيعة لا تأبه لخير أو لشر ، لفضيلة أو رذيلة ، وهي تشرق بشمسها في غير تفرقة بين الأوغاد والقديسين ؛ فلو كان للطبيعة صفة أخلاقية إطلاقاً ، فهي منافاتها للأخلاق كما تعرفها حدود البشر ؛ ولا حاجة بالإنسان إلى إلجام غرائزه وشهواته ، لأن هذه هي الإرشادات التي رسمتها الطبيعة للناس ، الفضيلة غلطة من الغلطات ، وغاية الحياة هي أن تعيش ، والحكمة الوحيدة هي أن تعيش سعيداً[١٥] .

كانت هذه الفلسفة الثائرة التي أخذ بها فريق « الشارفاكا » ختاماً لأسفار الفيدا وأسفار اليوپانشاد ، وزعزعت سلطة البراهمة على العقل الهندي ، وتركت في المجتمع الهندوسي فراغاً كاد يضطر الناس اضطراراً أن يصطنعوا لأنفسهم ديناً جديداً ؛ لكن أنصار المذهب المادي هؤلاء كانوا قد أجادوا أداء مهمتهم إجادة جعلت الديانتين اللتين نشأتا لتحلا محل العقيدة القيدية ، ديانتين ملحدتين ، أو عقيدتين تعبدتين بغير إله — ولو أن هذا القول قد يبدو للقارىء تناقضاً — فكلتا الديانتين الجديدتين كانتا شعبتين من الحركة الهدامة ؛ وكلتاهما لم تكونا من إنشاء الكهنة البراهمة ، بل ابتدعهما فريق من « الكشاترية » أي طبقة المقاتلين ، ليردوا بهما فعل اللاهوت والطقوس الكهنوتية ، وبظهور هاتين الديانتين ، وهما الجاينية والبوذية ، بدأ التاريخ الهندي عصراً جديداً .

الفصل الثانى

ماهافيرا والجانتيُّون

البطل العظيم – العقدة الجانتية – تعدد الآلهة والشرك بالله –
التقشف – الخلاص بالانتحار – تاريخ الجانتية فى مراحلها الأخيرة

حول منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وُلد صبى لرجل ثرى من أشراف قبيلة « لِشَّاڤى » فى ضاحية من ضواحى مدينة « ڤايشالى » فى الإقليم الذى يسمى الآن بإقليم « بهار »(*) . وكان أبواه على ثرائهما ينتميان إلى عقيدة تنظر إلى العودة إلى الحياة على أنها لعنة نزلت بمن يعود ، وتنظر إلى الانتحار على أنه ميزة ينعم بها المنتحر ؛ فلما أن بلغ وليدهما عامه الحادى والثلاثين ، أزهقا روحيهما بجوع متعمد ؛ فتأثر ابنهما الشاب تأثراً بلغ منه سويداء نفسه ، فاطرح العالم كله وأساليب العيش فيه ، وخلع عن جسده كل ثيابه ، وضرب فى أرجاء الإقليم الغربى من البنغال زاهداً متقشفاً ، ينشد تطهير نفسه من أدرانها كما يقصد أن يزداد بسر الوجود فهماً وعلماً ، وبعد أن قضى فى إنكار ذاته على هذا النحو ثلاثة عشر عاماً ، أعلنت جماعة من أتباعه أنه « چِنَا » (أى قاهر) ومعنى ذلك أنه معلم من عظماء المعلمين الذين يكتب لهم القدر – هكذا كانوا يعتقدون – أن يظهروا على فترات دورية ليهدوا شعب الهند سواء السبيل .

واختار هؤلاء الأتباع لزعيمهم اسما جديداً هو « ماهاڤيرا » أو « البطل العظيم » ، واتخـــذوا لأنفسهم اسما اشتقوه من اسم عقيدتهم فأطلقوا على أنفسهم اسم « الجانتيين » ونظم « ماهاڤيرا » طائفـــة من رجاله يكونون

(*) يروى الرواة أن ماهاڤيرا عاش بين سنتى (٥٩٩ – ٥٢٧ ق . م .) . لكن جاكوبى يعتقد أن ٥٤٩ – ٤٧٧ ق . م . أقرب إلى الصواب(١٦) .

رهباناً عُزّاباً وطائفة من النساء يكنّ راهبات عانسات ؛ فلما أن جاءته منيته وهو فى الثانية والسبعين من عمره ، ترك وراءه أربعة عشر ألفاً من أشياع مذهبه .

وأخذت هذه العقيدة شيئاً فشيئاً تخرج من جوفها مذهباً من أعجب ما شهده تاريخ الديانات من مذاهب ؛ فقد بدأ هؤلاء الأتباع بمنطق واقعى ، إذ وصفوا المعرفة بأنها لا تتجاوز حدود النسبى الذى يقع فى الزمان ، فكانوا يعلمون الناس أن ليس ثمة حق إلا من وجهة نظر معينة ، ولو نظر إلى هذا الحق من وجهات نظر أخرى لكان الأرجح أن يكون باطلا ؛ وكان يلذ لهم دائماً أن يرووا قصة العميان الستة الذين وضعوا أيديهم على أجزاء مختلفة من جسم الفيل ، فمن وضع يده على أذنه ظن أن الفيل مروحة ضخمة للذرّ الغلال ، ومن وضع يده على ساقه قال إن الفيل عمود مستدير كبير(٧١) ، فالأحكام كلها — إذن — محدودة بحدود ومشروطة بشروط ، وأما الحقيقة المطلقة فلا تتكشف إلا لهؤلاء المخلصين للبشر الذين يظهرون على فترات منتظمة ، أو طائفة « الجنا » كما كانوا يسمونهم ؛ وليست تنفع أسفار الڤيدا لسد هذا النقص ، لأنها لم تهبط من إله ، وأقل ما يقال فى التدليل على ذلك أن ليس هنالك إله ؛ وقد قال الجانتيون إنه ليس من الضرورى أن نفرض وجود خالق أو سبب أول ، فكل طفل يستطيع أن يفند مثل هذا الفرض بقوله إن الخالق الذى لم يُخْلَق أو السبب الذى لم يسبقه سبب ، لا يقل صعوبة عن الفهم عن افتراض عالم لم تسبقه أسباب ولم يخلقه خالق ؛ وإنه لأقرب إلى المنطق السليم أن نعتقد أن الكون كان موجوداً منذ الأزل ، وأن تغيراته وأطواره التى لا نهاية لها ترجع إلى قوى كامنة فى الطبيعة ، من أن تعزو هذا كله إلى صناعة إله(١٨) .

لكن مناخ الهند لا يساعد على عقيدة طبيعية تقوم بين الناس وتثبت ، فلما أفرغ الجانتيون السماء من إلهها ، لم يلبثوا أن عَمَرُوها من جديد بطائفة من القديسين المؤلهين ممن روى أخبارهم تاريخ الجانتيين وأساطيرهم ؛ وداحوا

يعدونهم مخلصين لهم العبادة مقيمين لهم الشعائر ؛ لكنهم اعتبروا هؤلاء المؤلهين أنفسهم خاضعين للتناسخ والتحلل ، ولم يعدوهم خالقين للعالم أو سادة عليه يحكمونه بأى معنى من المعانى(١٩) ، وليس معنى ذلك أن الجانتيين كانوا يعتنقون مذهباً مادياً خالصاً ، لأنهم فرقوا بين العقل والمادة فى كل الكائنات ، ففى كل شىء ، حتى الأحجار والمعادن ، أرواح كامنة ، وكل روح تحيا حياتها بغير شائبة تلام عليها ، تصبح « پاراماتمان » — أو روحاً سامية — وكانت تنجو بذلك من التقمص فى جسد آخر ، مدى حين ، على أنها تتقمص جسدها الجديد إذ ما نالت من الجزاء حقها الموفور ، ولا ينعم « بالخلاص » الكامل إلا أعلى الأرواح وأكملها ؛ ومن هؤلاء تتكون طائفة « الأرْهات » — أى السادة المعظمين — الذين كانوا يعيشون ، مثل آلهة أبيقور ، فى مملكة بعيدة ظليلة ، وهم عاجزون عن التأثير فى شئون الناس ، لكنهم ينعمون بارتفاعهم عن كل احتمال يؤدى إلى عودتهم إلى الحياة(٢٠) .

والطريق المؤدية إلى الخلاص فى رأى الجانتيين ، هى توبة تقشفية ، واصطناع « أهِمْسَا » موفورة كاملة ، « وأهمسا » معناها الامتناع عن إيذاء أى كائن حى ؛ ولزام على كل متقشف جانتى أن يأخذ على نفسه عهوداً خمسة ، ألا يقتل كائناً حياً ، وألا يكذب ، وألا يأخذ ما لم يُعْطَه ، وأن يصون عفته وأن ينبذ استمتاعه بالأشياء الخارجية كلها ؛ وفى رأيهم أن اللذة الحسية خطيئة دائماً ؛ والمثل الأعلى هو أن تأبه للذة أو ألم وأن تستغنى استغناء تاماً عن الأشياء الخارجية كلها ؛ فالزراعة حرام على الجانتى لأنها تمزق التربة وتستحق الحشرات والديدان ؛ والجانتى الصالح يرفض أكل العسل لأنه حياة النحل ، ويصفى الماء قبل شرابه خشية أن يقتل ما عساه أن يكون كامناً فيه من كائنات ؛ ويغطى فمه حتى لا يستنشق مع الهواء أحياء عالقة فيقتلها ، ويحيط مصباحه بستار حتى يقى الحشرات لذع النار ، ويكنس الأرض أمامه وهو يمشى خوفاً من أن

تدوس قدمه الحافية على كائن حى فتُرْديه ؛ ولا يجوز للجانتى أبداً أن يذبح حيواناً أو يضحى به ، ولو كان « چانتيا » صميما أقام المستشفيات والمصحات — كما ترى فى أحد أباد — للحيوانات إن هرمت أو أصابها أذى ؛ والحياة التى يجوز له أن يزهقها هى حياته دون غيرها ؛ فالعقيدة الجانتية تجيز الانتحار ولا تقيم فى سبيله العقبات ، خصوصاً إذا تم بوسيلة الجوع ، لأن ذلك أبلغ انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء ؛ ولقد مات جانتيون كثيرون على هذا النحو ، وقادة المذهب يبارحون هذه الدنيا — حتى فى عصرنا هذا — بتجويع أنفسهم حتى الموت(٢١) .

إن عقيدة دينية كهذه ، قائمة على أساس من الشك العميق فى قيمة الحياة والإنكار الشديد لها ، كان يمكن أن تجد فى الناس شيوعاً فى بلد ما فتئت الحياة فيه عسيرة شاقة ؛ لكن هذا التطرف فى الزهد قد حال دون إقبال الناس عليها حتى فى الهند ؛ فمنذ ظهور المذهب الجانتى ، والجانتيون صفوة مختارة ؛ وعلى الرغم من أن « يوان شوانج » وجدهم عديدى النفر أقوياء الأثر فى القرن السابع (٢٢). فإنهم كانوا عنـــدئذ فى أوج حياتهم التى سلخت سيرتها فى هدوء ؛ وحدث سنة ٧٩ ميلادية أن انشقوا فريقين تفصلهما هوة سحيقة من اختلاف الرأى على موضوع العرى ؛ ومنذ ذلك الحين ، كان الجانتى إما أن يكون منتسباً إلى طائفة « شويتامبارا » — أى طائفة ذوى الأردية البيض — وإما أن يكون منتسباً إلى طائفة « ديجامبارا » — أى المتزملين بالسماء ، أو ذوى الأجساد العارية ؛ وكلتا الطائفتين تلبس الثياب العادية كما يقضى المكان والزمان ، وقد يسوهم وحـــدهم هم الذين يجوبون الطرقات عراة الأجسام ؛ وهذان المذهبان الفرعيان لهما فروع ، فطائفة « ديجامبارا » لها أربعة فروع ، وطائفة « شويتامبارا » لها أربعة وثمانون فرعاً (٢٣) ، ويبلغ عدد أتباع الطائفتين معاً مليوناً وثلاثمائة ألف نسمة من عدد السكان الذين يبلغون ثلاثمائة وعشرين

مليوناً[٢٤] ، ولقد كان غاندى شديد التأثر بالمذهب الجانتى ، واصطنع « أهمسا » — ومعناها الامتناع عن إيذاء الكائنات الحية على اختلافها — أساساً لسياسته وحياته ، ورضى من الثياب بقطعة صغيرة من القماش تستر ردفيه ، ولم يكن يستحيل عليه أن يزهق نفسه جوعاً ؛ ومن يدرى ؟ فلعل الجانتيين يسلكونه فى طائفة « الجنا » فيعدونه تجسّداً جديداً للروح العظمى التى تتقمص جسداً من لحم على فترات منتظمة من الدهر لتخلّص العالم .

الفصل الثالث

أسطورة بوذا

بعثة البوذية – الولادة المعجزة – النشأة – أحزان
الحياة – الهرب – أعوام التقشف – الهداية –
رؤية النرفانا

إنه لمن العسير على أبصارنا أن ترى عبر ألفين وخمسمائة عام ماذا كانت الظروف الاقتصادية والسياسية والخلقية التى استدعت ظهور ديانتين تدعوان مثل ما تدعو إليه الجانتية والبوذية من تقشف وتشاؤم ؛ فمما لا شك فيه أن الهند كانت قد خطت خطوات فسيحة فى سبيلها إلى الرقى المادى منذ استقر بها الحكم الآرى : فبنيت مدائن عظيمة مثل « باتاليپُترا » و « ڤايشالى » ؛ وزادت الصناعة والتجارة من ثروة البلاد ؛ والثروة بدورها خلقت لطائفة من الناس فراغاً ، ثم طوَّر الفراغ العلم والثقافة ؛ ومن الجائز أن تكون الثروة فى الهند هى التى أشاعت فيها النزعة الأبيقورية المادية خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ؛ ذلك لأن الدين لا يزدهر فى حياة تزدهر بالثراء ، إذ الحواس فى ظل الثراء تحرر نفسها من قيود الورع وتخلق من الفلسفات ما يبرر هذا التحرر ؛ وكما حدث فى الصين أيام كونفوشيوس ، وفى اليونان أيام بروتاجوراس – ولن نذكر فى الهند أيام بوذا – أن أدى الانحلال العقلى للديانة القديمة إلى شك وفوضى فى الأخلاق ، فالجانتية والبوذية ، لو أنهما مترعتان فى ثناياهما بلون من الإلحاد الكئيب ، الذى ساد ذلك العصر بعد أن زالت عن عينيه غشاوة الأحلام وأوهامها ؛ إلا أنهما فى الوقت نفسه كانتا بمثابة رد فعل من جانب الدين فى مقاومته لمذاهب اللذة التى أخذت بها طبقة من الناس

حررت نفسها ونعمت فى حياتها بالفراغ (*) .

وتصف الرواية الهندوسية والد بوذا – شُدّذُوذانا – بأنه رجل غمس نفسه فى الحياة ، وهو من أبناء عشيرة «جواتاما» التى تنتسب إلى قبيلة « شاكيا » المُدِلّة بنفسها : كان أميراً أو ملكاً على « كاپيلا ڤاستو » عند سفح الهملايا[٢٥] ؛ ولكننا فى حقيقة الأمر لا نعرف شيئاً عن بوذا معرفة اليقين ؛ فلو رأيتنا قد قصصنا عليك هاهنا القصص التى تجمعت حول اسمه ، فليس ذلك لأنها تاريخ نريد إثباته ، ولكننا نرويها لأنها جزء ضرورى من الأدب الهندى والديانة الأسيوية ، ويحدد العلماء مولد بوذا بعام يقرب من سنة ٥٦٣ ق . م ثم لا يستطيعون أن يضيفوا إلى ذلك شيئاً ، فتتناول الأساطير بقية قصته ، وتكشف لنا عن الغرائب التى قد تحدث حين تحمل الأمهات بأعلام الرجال ، فيذكر لنا سفر من أسفار « چاتاكا » (**) أنه فى ذلك الوقت :

« فى مدينة كاپيلاڤاستو » أعلن عن الاحتفال بالبدر ؛ وبدأت الملكة « مايا » قبل موعد البدر بسبعة أيام تقيم حفلاتها بالعيد دون أن تقدم فيها المسكرات ، مكتفية بما أغرقت به ولائمها من أكاليل الزهور والعطور ؛ وفى اليوم السابع – يوم اكتمال البدر – استيقظت مبكرة واستحمت فى ماء

(*) لاحظ كثيرون أن هذه الفترة تميزت بكثرة الأنجم اللوامع فى تاريخ العبقرية ؛ فـ « ماهاڤيرا » و « بوذا » فى الهند ؛ و « لاوتسى » و « كونفوشيوس » فى الصين ؛ و « إرميا » و « أشعيا الثانى » فى الأمة اليهودية ؛ وفلاسفة ما قبل سقراط فى اليونان ؛ وربما كان ذلك أيضاً عهد « زرادشت » فى فارس ؛ ومثل هذا التعاصر فى النبوغ يدل على تبادل المؤثرات بين هذه الثقافات القديمة بدرجة أكبر مما يمكننا أن نتعقبه اليوم على سبيل التحديد .

(**) وهى « قصص عن ولادة » بوذا كتبت حول القرن الخامس الميلادى وهنالك كذلك أسطورة أخرى عنوانها « لا ليتا فستارا » التى ترجمها إلى الإنجليزية سير إدون آرنلد بعنوان « ضوء آسيا » .

وأحسنت للفقراء بأربعمائة ألف قطعة من النقد : ولما أخذت زخرفها وازّينت ، جلست تأكل طعامها من أطيب الطعام ، وقطعت على نفسها عهود « أبوساذا »(*) ، ثم دخلت مخدعها الرسمى المزدان ، واستلقت على سريرها ، فأخذها النعاس ورأت هذا الحلم :

رأت أربعة ملوك عظماء يرفعونها فى سريرها ويأخذونها إلى جبال الهملايا ويضعونها على هضبات مانوسيلا . . . ثم رأت ملكات هؤلاء الملوك الأربعة ، يأتين إليها فيأخذنها إلى بحيرة أنوتاتا ، ويغمسنها فى الماء ليزلن عنها الصبغة البشرية ، ويلبسنها أردية سماوية ويعطرنها بالعطور ويزيّنّها بالزهور القدسية ؛ ولم يكن على مبعدة منها أن رأت جبلا من فضة وعليه قصر من ذهب ؛ وهنالك أعددن لها سريراً إلهياً رأسه إلى الشرق ، وأرقدنها عليه ؛ وهاهنا انقلب « بوذيساتوا »(**) فيلا أبيض ، وكان على مقربة من المكان جبل من ذهب فلما أن بلغه هبط منه إلى جبل الفضة آتياً إليه من جهة الشمال ؛ وفى جعبته التى أشبهت حبلا من فضة ، كان يحمل زهراً أبيض من زهور اللوتس ؛ وبعدئذ نفخ فى الصور ودخل قصر الذهب ودار تجاه اليمين دورات ثلاثاً حول سرير أمه ، ثم ضرب جنبها الأيمن وظهر لها كأنه يدخل فى رحمها ؛ وبهذا تلقى . . حياة جديدة .

واستيقظت الملكة فى اليوم التالى وروت حلمها للملك ؛ فدعا الملك إلى حضرته أربعة وستين من أعلام البراهمة ، وخلع عليهم خلع التكريم وأشبعهم طعاماً فاخراً وقدم إليهم الهدايا ؛ فلما أن رضيت نفوسهم بهذه اللذائذ كلها ،

(*) هى عهود تقال فى أربعه أيام مقدسة من كل شهر ، وهى أيام البدر والهلال واليوم الثامن بعد كل منهما .

(**) شخص أراد له القدر أن يكون بوذا ، ومعناها هنا « بوذا » نفسه ، ومعنى كلمة بوذا « المستنير » وهى بين كثير من الألقاب التى تخلع على « السيد » الذى كان اسمه الشخصى « سدذارتا » واسم عشيرته « جواتاما » ؛ وكذلك كان يسمى « شاكيا — مونى » ومعناها « حكيم جماعة شاكيا » كما كان يسمى أيضاً « تاذاجاتا » ومعناها « الرجل الذى ظفر بالحق » ؛ ومع ذلك فلم يطلق بوذا على نفسه لقباً من هذه الألقاب فيما نعلم(٢٧) .

أمر بالحلم أن تُقصّ عليهم قصته ، واستفسرهم مايكنه الغيب ، فقال البراهمة : لا يأخذنك الهم أيها الملك ، فقد حملت الملكة ، حملت ذكراً لا أنثى ، وسيكون لك ابن ؛ ولو سكن ذلك الولد بيتاً فسيكون ملكاً ، سيكون ملكاً على الدنيا بأسرها ، وأما إن ترك داره وخرج من أحضان العالم ، فسيصبح بوذا ، وسيكون فى هذا العالم رافع الغشاوة عن أعين الناس (غشاوة الجهل) :

وحملت الملكة « مايا » « بوذيستاتاوا » عشرة أشهر كأنه الزيت فى القدح ، ولما أن جاءها أوانها رغبت فى الذهاب إلى بيت أهلها ، ووجهت الخطاب إلى الملك « شدذوذانا » قائلة : « أريد أيها الملك أن أذهب إلى « ديفاداذا » مدينة أسرتى » فوافق الملك وأمر بالطريق من « كابيلافاستو » إلى « ديفاداذا » أن يمهد وأن يزين بأصص النبات ، وبالرايات والأعلام ، وأجلسها فى هودج من ذهب يحمله ألف من رجال البلاط ، وأرسلها إلى بيت أهلها فى حاشية كبيرة ؛ وبين البلدين حَرْج يملكه أهل المدينتين جميعاً ، هو حرج يمرح فيه الناس ، يتألف من أشجار « الملح » ويسمى « حرجْ لُمبِينى » وكان الحرج إذ ذاك كتلة واحدة من الزهر الذى يغطى الأشجار من جذورها إلى رءوسها . . . فلما رأته الملكة رغبت فى أن تمرح فى الحرج . . . وذهبت إلى جذع شجرة كبيرة من أشجار « الملح » وأرادت أن تمسك بغصن من غصونها فانحنى الغصن حتى بات فى متناول يدها كأنه الطرف الأعلى من قصبة لينة ، ومدت يدها وتناولته ، وفى هذه اللحظة عينها اهتزت بالمخاض ، فأقامت لها الحاشية ستاراً يسترها ، وأبعدت عنها ، فوضعت وليدها وهى لم تزل واقفة ممسكة بغصن الشجرة فى يدها ؛ ولم ينزل « بوذيساتاوا » — كما ينزل سائر الأطفال من أجواف أمهاتهم — ملوثاً بالشوائب ؛ بل نزل « بوذيساتاوا » كما ينزل الواعظ من منبر وعظه ، نزل كأنه الرجل ينزل السلم ، ومد يديه وقدميه ، ووقف لا يلوثه القذر ولا تدنسه شائبة من الشوائب ، وقف مشرقاً بالضوء كأنه جوهرة موضوعة على ثوب بنارسى ، هكذا هبط من جوف أمه[٢٨] »

وفوق ذلك ينبغى أن تعلم أنه عند مولد بوذا ظهر فى السماء ضوء لامع ، وسمع الأصم ، ونطق الأبكم ، واستقام الأعرج على ساقيه ، وانحنت الآلهة من علياء سمائها لتمدّ له أيدى المعونة ، وأقبل الملوك من نائى البلاد يرحبون بمقدمه ، وتصور لنا الأساطير صورة زاهية لما أحاط نشأته من أسباب العز والترف ؛ وعاش عيش الأمير الهانئ فى ثلاثة قصور « كأنه إله » ، وكان أبوه يقيه ، مدفوعاً بحبه الأبوى ، شر الاتصال بما تعانيه الحياة البشرية من آلام وأحزان ؛ وكان يقوم على تسليته أربع آلاف راقصة ، ولما بلغ الرشد ، عرضت عليه خمسمائة سيدة ليختار إحداهن زوجة له ؛ ولما كان ينتمى إلى طبقة « الكشاترية » — أى « المقاتلين » أُحسن تدريبه فى الفنون العسكرية ، ولكنه إلى جانب ذلك جلس عند أقدام الحكماء حتى أتقن دراسة النظريات الفلسفية كلها التى كانت شائعة فى عصره (٢٩) ؛ وتزوج وأصبح والداً سعيداً بحياته ، وعاش فى ثراء ودَعَة وطيب أحدوثة .

ويروى الرواة الصالحون أنه خرج من قصره ذات يوم إلى الطرقات حيث عامة الناس ، وهنالك رأى شيخاً كهلا ، وخرج يوماً ثانياً فرأى رجلا مريضاً ، وخرج يوماً ثالثاً فرأى ميتاً ... فاسمع له يروى القصة بنفسه — كما نقلها أتباعه فى الكتب المقدسة — يرويها فيحرك فى نفسك كامن الشعور .

« وبعدئذ أيها الرهبان جرّت خواطرى على النحو الآتى — فيما كنت فيه من جلال عيش ورفاهية بالغة — قلت لنفسى : « إن رجلا جاهلا من سواد الناس ، ستنال منه الكهولة كما نالت من ذلك الشيخ ، وليس هو بالبعيد عن نطاق الشيخوخة ، يضطرب ويستحيى وتعاف نفسه حين يبصر بشيخ كهل لأنه يتصور نفسه فى مثل حالته ؛ إننى كذلك قابل للشيخوخة ، ولست بعيداً عن نطاقها ؛ أفينبغى لى — وأنا القابل الشيخوخة — إذا ما رأيت شيخاً كهلا ، أن أضطرب وأستحيى وأن تعاف نفسى ؟ » لم أر ذلك مما يليق ؛ ولما طاف برأسى هذا الخاطر ، ذهب عنى بغتة كل تيه بشبابى ...

وهكذا أيها الرهبان قبل أن أهتدى سواء السبيل ، لما وجدتنى ممن تجوز عليهم الولادة ، بحثت فى طبيعة هذه الولادة ماذا تكون ؛ ولما وجدتنى ممن تجوز عليهم الشيخوخة بحثت فى طبيعة هذه الشيخوخة ماذا تكون ، وكذلك المرض ، وكذلك الحزن ، وكذلك الدنس ؛ ثم فكرت لنفسى : « ما دمت أنا نفسى ممن تجوز عليهم الولادة ، فماذا لو بحثت فى طبيعتها ... فلما رأيت ما فى طبيعة الولادة من تعس ، جعلت أبحث عمن لا يولد ، أبحث عن السكينة العليا ، سكينة النرفانا[٣٠] .

إن الموت هو أصل الديانات كلها ؛ ويجوز أنه لو لم يكن هناك موت لما كان للآلهة عندنا وجود ، هذه النظرات كانت بداية « التنوير » عند بوذا ؛ وكما يرتد الإنسان عن دينه فى لحظة ، وكذلك حدثت لبوذا أن صمم فجأة أن يترك إياه(*) وزوجته وابنه الرضيع ، ليضرب فى الصحراء زاهداً ؛ ولما أسدل الليل ستاره ، تسلل إلى غرفة زوجته ، ونظر إلى ابنه « راهولا » نظرة أخيرة ؛ وتقول الأسفار المقدسة البوذية ، فى فقرة يقدسها أتباع « جوتاما » جميعاً ، إنه فى هذه اللحظة عينها :

« كان مصباح يضىء بزيت عبق ، وكانت أم « راهولا » نائمة على سرير ملىء بأكداس الياسمين وغيره من ألوان الزهور ، واضعة راحتها على رأس ابنها ؛ فنظر « بوذيستاوا » — بوذا المنتمر — وقد ماه عند الباب ، وقال لنفسه : « لو أزحت يد الملكة لآخذ ابنى ، فستستيقظ الملكة ، وسيكون ذلك حائلا دون فرارى ؛ إننى إذا ما أصبحت بوذا سأعود لأراه » ونزل من القصر[٣١] :

وفى ظلمة الصباح الباكر خلّف المدينة على ظهر جواده « كانثاكا » يصحبه سائق عربته « شونا » وقد تعلق يائساً بذيل الجواد ؛ وعندئذ تبدى له « مارا » أمير الشر ، وأغواه بملك عريض ، لكن بوذا أبى عليه غوايته ، وظل راكباً جواده حتى صادفه نهر عريض فوثب من شاطئه إلى شاطئه بوثبة

(*) ماتت أمه فى ولادته .

واحدة جبارة وطافت بنفسه رغبة أن ينظر إلى بلده لكنه أبى على نفسه اللفتة ليرى ، ثم استدارت الأرض العظيمة حتى لا تصبح أمامه سبيل إلى النظر إلى الوراء(٣٢) .

ووقف عند مكان اسمه « يوروڤيلا » يقول : « قلت لنفسى إن هذا لمكان رائع ، وإن هذه لغاية جميلة ؛ فالنهر ينساب صافياً ، وأماكن الاستحمام تبعث فى النفس السرور ، وكل ما حولى مروج وقرى » . وهاهنا فى هذا الموضع أخضع نفسه لأشق أنواع التقشف ؛ ولبث ستة أعوام يحاول أساليب « اليوجا » — رياضة النفس — التى كانت قد ظهرت قبل ذاك فى ربوع الهند ؛ وعاش على الحبوب والكلأ ، ومضى عليه عهد اقتات فيه بالروث ، وانتهى به التدرج إلى أن جعل طعامه حبة من الأرز كل يوم ، ولبس ثياباً من الوبر وانتزع شعر رأسه ولحيته لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب ؛ وكان ينفق الساعات الطوال واقفاً أو راقداً على الشوك ، وكان يترك التراب والقذر يتجمع على جسده حتى يشبه فى منظره شجرة عجوزاً ؛ وكثيراً ماكان يرتاد مكاناً تلقى فيه جثث الموتى مكشوفة ليأكلها الطير والوحش ؛ فينام بين هذه الجثث العفنة . ثم اسمع له مرة أخرى يروى لك قصته :

« قلت لنفسى : ماذا لو زممتُ الآن أسنانى ، وضغطت لسانى إلى لهاتى ؛ وأبلجمت عقلى وسحقته وأحرقته بعقلى (وهكذا فعلت) ونضح العرق من إبطى ... ثم قلت لنفسى : ماذا لو اصطنعت الآن غيبوبة شعورية يقف فيها التنفس ؟ وهكذا أوقفت النفس شهيقاً وزفيراً من أنفى وفمى ؛ ولما فعلت ذلك سمعت صوتاً عنيفاً للهواء يخرج من أذنىّ . . . وكما يحدث للرجل إذا ما أراد أن يهشم لإنسان رأسه بسن سيفه ، فكذلك رجّت الرياح العنيفة رأسى .. ثم قلت لنفسى : ماذا لو قللت من طعامى ، فلا آكل أكثر مما تسع راحتى من عصير الفول أو العدس أو البسلّى أو الحمص .. فضمر جسدى ضموراً شديداً ، وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت العلامة التى أتركها على الأرض إذا ما جلست ، فى هيئة أثر الخف يتركه البعير على الرمال ؛ وكان من أثر

تقليل الطعام أن برزت عظام فقراتى إذا ما حنيتها أو فردتها حتى أشبهت صفاً من رءوس المغازل ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت عينى تبرقان عميقتين وطيئتين فى محجريهما ، كما يبرق الماء عميقاً وطيئاً فى بئر عميقة ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أن ذبل جلد رأسى كما تتشقق وتذوى القرعة المرة المفصولة عن فرعها وهى فجة ، بفعل الشمس والمطر ، ولما كنت أمد يدى لأمس جلدة بطنى ، كنت أجدنى فى حقيقة الأمر أمسك بفقرات ظهرى ؛ وكان من أثر تقليل الطعام أنى إذا ما أردت براز آ وجدتنى أنبطح على الأرض سطيحاً ، وكان من أثر تقليل الطعام أنى إذا أردت راحة لجسمى وأخذت أدلكه بكفى ، كانت الشعرات الذاوية تتساقط منه »(٣٣) .

لكن فكرة أشرقت على بوذا ذات يوم وهى أن تعذيب النفس ليس هو السبيل لما يريد ، وربما كان فى ذلك اليوم أشد جوعاً منه فى سائر الأيام ، أو ربما ثارت فى نفسه إذ ذاك ذكرى من ذكريات الجمال ، ذلك أنه لم يلحظ تنويراً جديداً يأتيه من هـذه الحياة القاسية بزهدها : « إننى بمثل هذه القسوة لا أرانى أبلغ العلم والبصيرة الساميتين على مستوى البشر ، وهما العلم والمعرفة اللتان تتصفان بالرفعة الحقيقية » ، بل الأمر على نقيض ذلك ، إن تعـذيبه لنفسه قد ولد فيه شعور المزهو بنفسه مما يفسد أى نوع من أنواع التقديس التى كان من الجائز أن تفيض من نفسه ، فأقلع عن زهده وذهب ليجلس تحت شجرة وارفة الظل(*) وجلس هناك جلسة مستقيمة لا حركة فيها ، مصمماً ألا يبرح ذلك المكان حتى يأتيه التنوير ، وسأل نفسه : ما مصدر ما يعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت ؟ وهنا أشرقت عليه فجأة صورة للموت والولادة يتعاقبان فى مجرى الحياة تعاقباً لا ينتهى ؛ ورأى أن كل موت يزول أثره بولادة جديدة ؛ وكل سكينة وغبطة تقابلها شهوة جديدة وقلق جديد وخيبة أمل جديدة وحزن جديد وألم جديد . « وهكذا

(*) هى « شجرة بوذ » التى ستصبح فيما بعد معبودة عند البوذيين ، ولا تزال هناك تعرض على السائحين عند مرورهم بـ « بوذجايا » .

ركزت عقلي في حالة من نقاء وصفاء ... ركزته في فناء الكائنات وعودتها إلى الحياة في ولادة جديدة ؛ وبنظرة قدسية مطهرة إلهية ، رأيت الكائنات الحية تمضي ثم تعود فتولد دَنِيَّة أو سَنِيَّة ، خيرة أو شريرة ، سعيدة أو شقية ، حسب ما يكون لها من «كارما» وفق ذلك القانون الشامل الذى بمقتضاه سيتلقى كل فعل خيّر ثوابه ، وكل فعل شرير عقابه ، فى هذه الحياة ، أو فى حياة تالية تتقمص فيها الروح جسداً آخر .

إن رؤيته لهذا التعاقب السخيف سخفاً لا يخفى على الرائى ، هذا التعاقب بين الموت والولادة ، هى التى جعلته يزدرى الحياة البشرية ازدراء ؛ فقال لنفسه : إن الولادة أم الشرور جميعاً ، ومع ذلك فالولادة ماضية فى طريقها لا تقف فيه عند حد ، إنها ماضية إلى الأبد فى طريقها تعيد إلى مجرى الأحزان البشرية فيضه إن فرغ مما يملؤه ؛ فلو استطعنا وقف هذه الولادة . . . لماذا لا نقفها ؟(*) لأن قانون «كارما» يتطلب حالات جديدة من التقمص للروح ، لكى يتاح لها أن تكفر عما اقترفت من شرور فى حيـــواتها الماضيات ؛ وإذن فإن استطاع الإنسان أن يعيش حياة يسودها عدل كامل ، حياة يسودها صبر وشفقة لا يمتنعان إزاء الناس جميعاً ، لو استطاع أن يحوم بفكره حول ما هو أبدى خالد ، ولا يربط هواه بما يبدأ وينتهى — عندئذ يجوز أن يجنب نفسه العودة إلى الحياة ، وسيغيض معين الشر بالنسبة إليه ؛ لو استطاع الإنسان أن يخمد شهوات نفسه ، ساعياً وراء فعل الخير دون سواه ، عندئذ يجوز أن يمحو هذه الفردية التى هى أولى أوهام الإنسانية وأسوؤها أثراً ، وتتحد النفس آخر الأمر باللانهاية اللاواعية ؛ فيا لها من سكينة تحل بقلب طهر نفسه من شهواته الذاتية تطهيراً تاماً ؟ — وهل ترى قلباً ، لم يطهر نفسه على هذا النحو قد عرف إلى السكينة سبيلا ؟ إن السعادة مستحيلة ، فلا هى ممكنة فى هذه الحياة الدنيا كما يظن الوثنيون ، ولا هى ممكنة فى الحياة الآخرة كما يتوهم

(*) تتفرع فلسفة شوبنهور من هذه الأرومة عند هذه النقطة .

أنصار كثير من الديانات ؛ أما ما يمكن أن تظفر به فهو السكينة ، هو الهمود البارد الذى نصيبه إذا ما نفضنا عنا كل شهواتنا ، هو النرڤانا .

وهكذا بعد سنوات سبع قضاها متأملا ، أدرك « النبي المستنير » سبب ما يعانيه الناس من آلام فأخذ سمته نحو « المدينة المقدسة » مدينة بنارس ، وهناك فى روضة الغزلان عند « سارنات » طفق يبشر الناس بالنرڤانا .

obeikandl.com

الفصل الرابع

تعاليم بوذا(*)

صورة الزعيم — أساليبه — الحقائق الساميه الأربع —
الطريق ذو الخمس شعب — قواعد الأخلاق الخمس —
بوذا والمسيح — لاأدرية بوذا ومناهضته لرجال الدين —
إلحاده — علم نفس بغير نفس — معنى النرفانا

كانت وسيلة بوذا فى نشر تعاليمه — شأنه فى ذلك شأن سائر المعلمين فى عصره — هى المحاورة والمحاضرة وضرب المثل. ولما لم يدر فى خلده قط — كما لم يدر فى خلد سقراط أو المسيح — أن يدون مذهبه ، فقد لخصه فى « عبارات مركزة » أريد بها أن يسهل وعيها على الذاكرة ، وهذه المحادثات — على الصورة التى احتفظ لنا بها الرواة من أتباعه — تصور تصويراً لاشعورياً أول شخصية واضحة الحدود والمعالم فى التاريخ الهندى : رجل قوى الإرادة ، صادق الرواية ، مزهو بنفسه ، وديع المعاملة ، رقيق الكلام ، محسن إحساناً

(*) أقدم ما لدينا من وثائق تحتوى على تعاليم بوذا هى الـ « پتاكات » ، ومعناها « سلاسل القانون » ، التى أعدت لتعرض على المجلس البوذى الذى انعقد سنة ٢٤١ قبل الميلاد ، وقد وافق هذا المجلس على أن ما فى هذه الوثائق هو تعاليم بوذا بغير تحريف ، تلك التعاليم التى لبثت أربعة قرون يتناقلها بالرواية الشفوية جيل عن جيل ، أى أنها لبثت كذلك منذ وفاة بوذا حتى انتهى بها الأمر إلى التدوين باللغة « الپاليه » حول سنة ٨٠ قبل الميلاد ؛ وهذه « الپتاكات » تقع فى ثلاث مجموعات : « السوتا » أى الحكايات ، و « الفنايا » أى التشريع ، و « الأبيدوما » أى المذهب ؛ أما أولى هذه المجموعات — أعنى پتاكة الحكايات — فتحوى على محاورات بوذا ، التى يضعها « رايس داڤيدز » فى منزلة واحدة مع محاورات أفلاطون(٣٤) وإذا أردنا الدقة فى القول ، وجب أن نقول إن هذه المدونات لا تحتوى بالضرورة على تعاليم بوذا نفسه ، بل تحتوى على تعاليم المدارس البوذية ، ويقول « سير تشارلز إليت » : على الرغم من أن هذه الحكايات أخذت تتزايد على مر القرون ، فلست أرى ما يبرر الريبة بأن أقدم الطبقات فى هذا البناء المتراكم تحتوى على ما دونه صحابة الزعيم معتمدين على تذكرهم لما سمعوه منه .

obeikandi.com

لا ينتهى عند حد معلوم ؛ ولقد زعم لنفسه « الاستنارة » لكنه لم يدّع الوحى ، فما زعم قط للناس أن إلها كان يتكلم بلسانه ، وهو فى جدله مع خصومه أكثر صبراً أو مجاملة من أى معلم آخر ممن شهدت الإنسانية من أعلام المعلمين ؛ ويصوره لنا أتباعه — وربما كانوا يضيفون إليه ما ليس فيه لتكمل صورته — يصورونه لنا مصطنعاً لـ « أهمسا » على أتم درجاتها (والأهمسا هى الامتناع عن قتل الكائنات الحية على اختلافها) ؛ فيقولون عنه : « إن جوتاما الذى اعتزل الناس قد رفع نفسه عن الفتك بالحياة ، بأن كف عن قتل الأحياء ؛ لقد خلع عن نفسه الهراوة والسيف (مع أنه كان يوماً من طبقة الكشاترية — أى طبقة المقاتلين) وهو يزورُّ عن غلظة المعاملة ازوراراً ، ويمتلىء قلبه بالرحمة فهو رحيم شفوق بكل كائن تدب فيه الحياة . . وترفع عن النميمة ، أو رفع نفسه عن دناءة الغيبة ... هكذا كان يعيش رابطاً لما انحلت عراه ، مشجعاً لدوام الصداقة بين الأصدقاء ، مصلحاً ذات البين عند الخصوم ، محباً للسلام ، متحمساً للسلام ، متحدثاً بكلمات تهيىء للسلام[٣٦] » ؛ لقد كان مثل « لاوتسى » ومثل « المسيح » يود أن يرد السيئة بالحسنة ، والكراهية بالحب ؛ وإذا أسىء إليه فى النقاش أو أسىء التفاهم بينه وبين من يحاوره ، آثر الصمت « إذا أساء إلىّ إنسان عن حمق ، فسأرد عليه بوقاية من حبى إياه حباً مخلصاً ، وكلما زادنى شراً ، زدته خيراً » ؛ فإذا جاء غر وأهانه ، استمع إليه بوذا وهو صامت ؛ حتى إذا ما فرغ الرجل من حديثه ، سأله بوذا : « إذا رفض إنسان يا بنى أن يقبل منحة تقدم إليه ، فمن يكون صاحبها ؟ » فيجيبه الرجل : « إن صاحبها عندئذ هو من قدمها » ، فيقول له بوذا : « إنى أرفض يا بنى قبول إهانتك ، وألتمس منك أن تحفظها لنفسك[٣٧] » إن بوذا — على خلاف الكثرة الغالبة من القديسين — كانت له روح الفكاهة ، لأنه أدرك أن البحث الميتافيزيقى بغير ضحك يصاحبه ، هو من ضروب الكبرياء .

كانت طريقته فى التعليم فريدة لا يماثلها نظير ، ولو أنها مدينة بشىء « للجوالين » أو السوفسطائيين المتنقلين الذين عاصروه فى بلده ؛ فكان ينتقل من بلد إلى بلد ، وفى صحبته تلاميذه المقربون ، وفى إثره ما يقرب من ألف ومائتين من أتباعه المخلصين ، ولم يكن أبدا يهتم لغده ، فكان يكتفى بالزاد يقدمه له أحد المعجبين من سكان البلد الذى يحل فيه ؛ ولقد وصم ذات يوم أتباعه بالعار ، لأنه أكل فى منزل امرأة فاجرة(٣٨) ؛ كانت طريقته دائماً أن يقف السير عند مدخل قرية من القرى ، ويضرب خيامه فى حديقة أو غابة أو على ضفة نهر ، وكان يخصص ساعات العصر لتأملاته ، وساعات المساء للتعليم ، وكانت محادثاته تجرى فى صورة سقراطية من الأسئلة وضرب الأمثلة الخلقية والتلطف فى الحوار ، أو كان يسوق تعاليمه فى عبارات مقتضبة يرمى بها إلى تركيز آرائه تركيزاً يجعلها فى صورة من الإيجاز والترتيب بحيث تقر فى الأذهان وأحب « عباراته التعليمية المقتضبة » إلى نفسه هى « الحقائق السامية الأربع » التى بسط فيها رأيه بأن الحياة ضرب من الألم ، وأن الألم يرجع إلى الشهوة ، وأن الحكمة أساسها قمع الشهوات جميعاً :

١ — تلك — أيها الرهبان — هى الحقيقة السامية عن الألم : الولادة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والحزن والبكاء والخيبة واليأس كلها مؤلم . . .

٢ — وتلك — أيها الرهبان — هى الحقيقة السامية عن سبب الألم : سببه الشهوة ، الشهوة التى تؤدى إلى الولادة من جديد ، والشهوة التى تمازجها اللذة والانغماس فيها ، الشهوة التى تسعى وراء اللذائذ تتسقطها هنا وهناك ، شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة ، وشهوة العدم .

٣ — وتلك — أيها الرهبان — هى الحقيقة السامية عن وقف الألم :

أن نجتث هذه الشهوة من أصولها فلا تبقى لها بقية فى نفوسنا ، السبيل هى الانقطاع والعزلة والخلاص وفكاك أنفسنا مما يشغلها من شئون العيش .

٤ ــ وتلك ــ أيها الرهبان ــ هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم : إنها السبيل السامية ذات الشعب الثمان ، ألا وهى : سلامة الرأى ، وسلامة النية ، وسلامة القول ، وسلامة الفعل ، وسلامة العيش ، وسلامة الجهد ، وسلامة ما نعنى به ، وسلامة التركيز[٣٩] .

كانت عقيدة بوذا التى يؤمن بصدقها ، هى أن الألم أرجح كفة من اللذة الحياة الإنسانية ، وإذن فخير للإنسان ألا يولد ، وهو فى ذلك يقول إن ما سفح الناس من دموع لأغزر من كل ما تحتوى المحيطات العظيمة الأربعة من مياه[٤٠] ، فعنده أن كل لذة تحمل سمها فى طيها ، لمجرد أنها لذة عابرة قصيرة : « أذلك الذى يزول ولا يقيم هو الحزن أم السرور ؟ » ألقى هذا السؤال على أحد تلاميذه ، فأجابه هذا بقوله : « إنه الحزن يا مولاى »[٤١] إذن فأس الشرور هو « كاما » ــ وليس معناها الشهوة كائنة ما كانت ، بل الشهوة الأنانية ، الشهوة التى يوجهها صاحبها إلى صالح الجزء أكثر مما يريد بها صالح الكل ؛ وفوق الشهوات كلها الشهوة الجنسية ، لأنها تؤدى إلى التناسل الذى يطيل من سلسلة الحياة إلى ألم جديد بغير غاية مقصودة ؛ وقد استنتج أحد تلاميذه من ذلك أنه ــ أى بوذا ــ بهذا الرأى يجيز الانتحار لكن بوذا عنفه على استنتاجه ذاك ، قائلا : إن الانتحار لا خير فيه ، لأن روح المنتحر ــ بسبب ما يشوبها من أدران ــ ستعود فتولد من جديد فى أدوار أخرى من التقمص ؛ حتى يتسنى لها نسيان نفسها نسياناً تاماً .

ولما طلب تلاميذه منه أن يحدد معنى الحياة السليمة فى رأيه لكى يزيد الرأى وضوحاً ، صاغ لهم ، « قواعد خلقية خمسة » يهتدون بها ــ وهى بمثابة

الوصايا ولكنها بسيطة مختصرة ، غير أنها قد تكون «أشمل نطاقاً وأعسر التزاماً ، مما تقتضيه الوصايا العشر[٤٢](*) » .

وأما وصاياه الخمس فهى :

١ ــ لا يقتلن أحد كائناً حياً .

٢ ــ لا يأخذن أحد ما لم يُعْطَه .

٣ ــ لا يقولن أحد كذباً .

٤ ــ لا يشربن أحد مسكراً .

٥ ــ لا يقيمن أحد على دنس [٤٣] .

وترى بوذا فى مواضع أخرى يضيف إلى تعاليمه عناصر يتسلف بها تعاليم المسيح على نحو يدعو إلى العجب : « على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة ، وأن يزيل الشر بالخير . . . إن النصر يولد المقت لأن المهزوم فى شقاء . . . إن الكراهية يستحيل عليها فى هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها ، إنما تزول الكراهية بالحب[٤٤] » . وهو كالمسيح لم يكن يطمئن نفساً فى حضرة النساء ، وتردد كثيراً قبل أن يسمح لهن بالانضمام إلى الطائفة البوذية ؛ ولقد سأله تلميذه المقرب « أناندا » ذات يوم :

ــ « كيف ينبغى لنا يامولاى أن نسلك إزاء النساء ؟ » .

ــ « كما لو لم تكن قد رأيتهن يا أناندا »

ــ « لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن ؟ »

ــ « لا تتحدث إليهن يا أناندا »

ــ « لكن إذا ما تحدثن إلينا يامولاى فماذا نصنع ؟ »

ــ « كن منهن على حذر تام يا أناندا » .

(*) يشير إلى الوصايا العشر التى جاءت بها الديانة اليهودية : لا تسرق ، لا تقتل الخ . (المعرب)

كانت فكرته عن الدين خلقية خالصة ؛ فكان كل ما يعنيه سلوك الناس وأما الطقوس وأما شـــعائر العبادة ، وما وراء الطبيعة واللاهوت ، فكلها عنده لا تستحق النظر ؛ وحدث ذات يوم أن هم برهمى بتطهير نفسه من خطاياها باستحمامه فى « جايا » ، فقال له بوذا : « استحم هنا ، نعم هاهنا ولا خاجة بك إلى السفر إلى جايا أيها البرهمىّ ؛ كن رحيما بالكائنات جميعاً ؛ فإذا أنت لم تنطق كذباً ، وإذا أنت لم تقتل روحاً ، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يعط لك ، ولبثت آمناً فى حدود إنكارك لذاتك — فماذا تجنى من الذهاب إلى « جايا » ؟ إن كل ماء يكون لك عندئذ كأنه جايا »[٤٦] ؛ إنك ان تجد فى تاريخ الديانات من هو أغرب من بوذا يؤسس ديانة عالمية ، ومع ذلك يأبى أن يدخل فى نقاش عن الأبدية والخلود والله ؛ فاللانهائى أسطورة — كما يقول — وخرافة من خرافات الفلاسفة ، الذين ليس لديهم من التواضع ما يعترفون به بأن الذرة يستحيل عليها أن تفهم الكون ؛ وإنه ليبتسم[٤٧] ساخراً من المحاورة فى موضوع نهائية الكون أو لا نهائيته ؛ كأنما هو قد تسلف بنظره إذ ذاك ما يدور بين علماء الطبيعة والرياضيين اليوم من مناقشة حول الموضوع مناقشة ما أقربها من حديث الأساطير ؛ لقد رفض أن يبدى رأيا عما إذا كان للعالم بداية أو نهاية ، أو إذا كانت النفس هى الجسد أو شيئاً متميزاً منه أو إذا كان فى الجنة ثواب للناس حتى أقدس القديسين من بينهم ؛ وهو يسمى هذه المشكلات « غاية التأمل النظرى وصحراءه وبهلوانه والتواءه وتعقيده »[٤٨] ويعتزم ألا يكون له شأن بأمثال هذه المسائل ، فهى لا تؤدى بالباحثين فيها إلا إلى الخصومة الحادة ، والكراهية الشخصية والحزن ، ويستحيل أن تؤدى بهم إلى حكمة أو سلام ، إن القدسية والرضى لايكونان فى معرفة الكون والله ، وإنما يكونان فى العيش الذى ينكر فيه الإنسان ذاته ، ويبسط كفه للناس إحساناً[٤٩] ؛ ثم يضيف إلى ذلك تهكماً بشعاً فيقول إن الآلهة أنفسهم ، لو كان

لهم وجود ، لما كان فى وسعهم أن يجيبوا عن أمثال هذه المسائل .

« حدث ذات مرة يا « كڤاذا » أن طاف الشك بزميل من طائفة الزملاء هذه ، حول النقطة الآتية : « أين تمضى هذه العناصر الأربعة الكبرى : التراب والماء والنار والهواء ، بحيث لاتترك وراءها أثراً ؟ » وجعل ذلك الزميل يقدح زناد عقله حتى أخذته حالة من الوجد اتضحت له معها السبيل المؤدية إلى الله .

عندئذ يا « كڤاذا » صعد هذا الزميل إلى مملكة الملوك الأربعة الكبار ، وخاطب آلهتهم قائلا : « أين يا أصدقائى تذهب العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

فلما أن فرغ من سؤاله هذا ، أجابه الآلهة فى سماء الملوك الأربعة الكبار : « إننا يا أخانا لا ندرى من ذلك شيئاً ، لكن هنالك الملوك الأربعة الكبار ، هم أقوى منا وأعظم ، سَلْهُمْ يجيبوك » .

[وعندئذ يا « كڤاذا » ذهب ذلك الزميل إلى الملوك الأربعة وسأل نفس السؤال فأحيل بمثل ذلك الجواب إلى « الثلاثة والثلاثين » الذين أحالوه بدورهم إلى ملكهم « ساكا » الذى أحاله إلى آلهة « ياما » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « سوياما » الذى أحاله إلى آلهة « توسيتا » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « سانتوسيتا » ، الذى أحاله إلى آلهة « نمانا — رتى » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « سونى ميتا » الذى أحاله إلى آلهة « پارانيميتا ڤاساڤاتى » ، وهؤلاء أحالوه إلى ملكهم « ڤاساڤاتى » الذى أحاله إلى آلهة العالم البرهمى » .

وبعدئذ « يا كڤاذا » جعل ذلك الزميل يركّز تفكيره فى نفسه تركيزاً استنفد كل ذرة من انتباهه ، وانتهى به ذلك التفكير المركّز إلى شهوده بعقله الذى أمسك هكذا بزمامه ، طريقَ العالم البرهمى واضحاً ؛ فدنا من الآلهة التى تتألف منها حاشية براهما ، وقال : « أين يا أصدقائى تذهب العناصر الأربعة

الكبرى – التراب والماء والنار والهواء – بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

« فلما فرغ من سؤاله أجابته الآلهة التي تؤلف حاشية براهما قائلة : « إننا يا أخانا لا ندري من ذلك شيئاً ، ولكن هنالك براهما ، براهما العظيم ، الواحد العلي ، الواحد القدير ، الواحد البصير ، مَن بيده الأمر والتدبير في جميع الشئون ، فهو ضابط كل شيء وخالق كل شيء وسيد كل شيء ... هو السابق للزمان ، وهو والد كل ما هو كائن وكل ما سيكون ! إنه أقوى منا وأعظم ، سَلْهُ يجبك » .

« أين إذن هذا البراهما العظيم ؟ » .

« إننا يا أخانا لا ندري أين يكون براهما ، ولا لماذا كان ولا من أين جاء ؛ ولكن يا أخانا إذا ما بدت لنا بوادر مجيئه ، إذا ما أشرق الضوء وسطع المجد ، عندئذ سيتبدّى للناظرين ، لأن بادرة ظهور براهما هي إشراق الضوء وسطوع المجد » .

ولم يمض طويل وقت بعد ذاك يا « كشاذا » حتى تبدى براهما العظيم ، فدنا منه أخونا ذاك وسأله : « أين يا صديقي تذهب العناصر الأربعة الكبرى – التراب والماء والنار والهواء – بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

فلما فرغ من سؤاله أجابه براهما العظيم : « أنا يا أخي براهما العظيم العلي القوي البصير ، بيدي الأمر والتدبير في كل شيء ، وأنا ضابط كل شيء وخالق كل شيء وسيد كل شيء ، أعين لكل شيء مكانه ، أنا السابق للزمان والد كل ما هو كائن وكل ما سيكون ! »

عندئذ أجاب الأخ براهما قائلا : « أنا لم أسألك يا صديقي هل أنت حقاً كل هذا الذي ذكرت من صفات ، لكني سألتك أين تذهب العناصر الأربعة الكبرى – التراب والماء والنار والهواء – بحيث لا تترك وراءها أثراً ؟ » .

فأجابه براهما نفس الجواب مرة أخرى يا «كشاذا» .

وأعاد أخونا سؤاله للمرة الثالثة إلى براهما .

فأخذ براهما العظيم — يا «كشاذا — أخانا ذاك ونحّاه جانباً وقال : «إن هذه الآلهة التى منها تتألف حاشية براهما ، تعتقد أنى — يا أخى — أرى كل شىء وأعلم كل شىء وأتبين كل شىء ؛ ولهذا لم أجبك فى حضرتهم ؛ لكننى ، أيها الأخ ، لست أدرى أين تذهب هذه العناصر الأربعة الكبرى — التراب والماء والنار والهواء — بحيث لا تترك وراءها أثراً»(٥٠) .

فإذا ما قال لبوذا بعض تلاميذه ، أن البراهمة يزعمون الإلمام بحلول هذه المسائل ، أجابهم ساخراً : «هنالك يا إخوانى بعض الرهبان وبعض البراهمة يتلوون مثل ثعابين الماء ، فإذا ما ألقيت عليهم سؤالا فى هذا الموضوع أو ذاك ، عمدوا إلى غموض القول ، وإلى تلوى الثعابين(٥١) ؛ ولو بدتْ من بوذا حدّة إزاء أحد إطلاقاً ، فإنما كان حاداً تجاه كهنة عصره ، فهو يهزأ بدعواهم أن أسفار القيدا من وحى الآلهة(٥٢) ، ويفضح البراهمة المعتزين بطبقتهم بقبوله فى طائفته أعضاء الطوائف جميعاً بغير تفريق ؛ إنه لا يهاجم نظام الطبقات مهاجمة صريحة ، لكنه يقول لتلاميذه فى وضوح وجلاء : «انتشروا فى الأرض كلها وانشروا هذه العقيدة ؛ قولوا للناس إن الفقراء والمساكين ، والأغنياء والأعيان ، كلهم سواء ، وكل الطبقات فى رأى هذه العقيدة الدينية تتحد لتفعل فعل الأنهار تصب كلها فى البحر»(٥٣) ، وهو يرفض الأخذ بفكرة التضحية فى سبيل الآلهة ، ويفزع أشد الفزع لرؤية الحيوان يذبحونه ليقيموا أمثال هذه الطقوس(٥٤) ؛ ويرفض كل اعتقاد وكل عبادة لكائنات أعلى من هذه الطبيعة ، ويربأ بنفسه عن التعزيم والرُّقى والتقشف والدعاء(٥٥) ، ويقدّم للناس فى هدوء وبغير محاجة ولجاج ديناً حرّاً أكمل الحرية من جمود الفكر ومن صناعة الكهنوت ، ويفتتح طريقاً للخلاص ، للكافرين والمؤمنين أن يسلكوه على السواء .

وقد يتحول هذا القديس أحياناً ، الذى هو أشهر من عرف الدهر من قديسى الهندوس ، قد يتحول من اللاأدرية إلى إلحاد صريح[٥٦](*) ، إنه لا ينحرف عن جادّته لينكر وجود الله ، بل إنه حيناً بعد حين يذكر براهما كأنه حقيقة واقعة أكثر منه مثلا أعلى[٥٨] ثم هو لا يحرم عبادة الآلهة الشائعة بين الناس[٥٩] لكنه يسخر من فكرة إرسال الدعوات إلى « المجهول » ، وفى ذلك يقول : « إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سبباً فى سعادتك أو شقائك[٦٠] لأن السعادة والشقاء دائما نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن ؛ وهو يأبى أن يبنى تشريعه الخلقى على عقوبات تفرضها « قوة وراء الطبيعة ، كائنة ما كانت تلك العقوبات ، ولا يجعل جزءاً من عقيدته جنة ولا مطهراً ولا جحيما[٦١] ؛ وهو أرهف حساسية للألم والقتل الذى ينزل بالكائنات الحية بحكم العملية البيولوجية فى الحياة ، من أن يفرض أن هذا القتل وذاك الألم قد أرادهما إله مشخص إرادة عن عمد وتدبير ؛ وهو يرى أن هذه الأغلاط فى نظام الكون ترجح ما فيه من آيات تدل على تدبير وتنسيق[٦٢] ؛ انه لا يرى على هذا المسرح الذى تمتزج فيه الفوضى والنظام ، والخير والشر ، مبدأ ينم عن الدوام ، ولا مركزاً لحقيقة أبدية خالدة[٦٣] ، وكل ما يراه فى الحياة دوامة تدور وحركة ما تنفك فى تغير ؛ إن الحقيقة الميتافيزيقية النهائية فى هذه الحياة هى التغير .

وكما أنه يقترح لاهوتاً بغير إله ، فكذلك يقدم لنا علم نفس بغير نفس ؛ فهو يرفض الروحانية فى شتى صورها حتى فى حالة الإنسان ؛ وهو يوافق هرقليطس وبرجسن فى رأيهما عن العالم ، كما يوافق هيوم فى رأيه عن العقل ، فكل ما نعرفه هو إحساساتنا ، وإذن ، فإلى الحد الذى نستطيع أن نبلغه بعلمنا ، لا نرى سوى أن المادة كلها ضرب من القوة ، والعناصر كلها نوع من الحركة ،

(*) يقول سير تشارلز إليت إن البوذية « لا ترى العالم على أنه من خلق شخصية إلهية ، كلا ولا ترى القانون الأخلاقى على أنه من أمرها ؛ فكون الديانة تستطيع أن تقوم بغير هذه الأفكار أمر عظيم الخطر »[٥٧] .

الحياة تغيُّر ، هى مجرى دافق محايد من صيرورة وفناء ؛ إن « الروح » أسطورة من الأساطير ، فرضناها بغير مبرر يؤيدها ، لنريح بهذا الفرض أذهاننا الضعيفة ، فرضناها قائمة وراء سلسلة الحالات الشعورية المتعاقبة[٦٤] إن هذا « الرابط الذى يربط المدركات دون أن يكون واحداً منها » ؛ هذا « العقل » الذى ينسج خيوط إحساساتنا وإدراكاتنا فى نسيج من الفكر ، إنْ هو إلا شبح توهمناه ؛ وكل ما هو موجود حقاً هو الإحساسات نفسها والإدراكات نفسها ، تتكون بصورة آلية فى هيئة تذكرات وأفكار[٦٥] ؛ حتى هذه «الذات» النفسية ليست كائناً قائماً بذاته متميزاً من سلسلة الحالات العقلية ؛ ليست الذات سوى استمرار هذه الحالات ، وتذكر الحالات اللاحقة للحالات السابقة ، مضافاً إلى ذلك ما يتعوده الجسم العضوى من عادات عقلية وسلوكية ، وما يتكون لديه من ميول واتجاهات[٦٦] ؛ إن تعاقب هذه الحالات لا تسببه « إرادة » أسطورية تضاف إليها من أعلى ، بل تقرره الوراثة والعادة والبيئة والظروف[٦٧] فهذا العقل السائل الذى لا يعدو أن يكون مجموعة من حالات عقلية ، هذه النفس أو هذه الذات التى ليست إلا ميلا نحو سلوك معين أو هوى إلى اتجاه بذاته ، كونته الوراثة التى لا حول لها ولا قوة ، كما كونته كذلك الخبرة العابرة خلال تجارب الحياة ، أقول إن هذه النفس أو هذه الذات أو هذا العقل يستحيل أن ينطبق عليه معنى الخلود ، إذا فهمنا من هذا المعنى استمرار الفرد فى وجوده[٦٨] فليس القديس ، بل ليس بوذا نفسه بخالد بعد موته خلوداً يحفظه بشخصه[٦٩] .

ولكن إن كان ذلك كذلك ، فيكف يمكن أن يعود الحى إلى الحياة من جديد فى ولادة ثانية ؟ إذا لم يكن هناك روح ، فما الذى يتقمص أجساداً أخرى فى ولادات تالية ، ليلقى عذابه على خطاياه إذ هو حال فى صورة الجسد ؟ تلك هى أضعف الجوانب فى فلسفة بوذا ، فهو لا يحاول أبداً أن يزيل التناقض الكائن بين علم نفسه العقلى وبين قبوله لمذهب التقمص قبولا

أعمى ؛ إن هذا الإيمان بحقيقة التناسخ أو تقمص الروح فى أجساد متتالية له فى الهند قوة وشمول بحيث يعتنقه كل هندوسى على أنه بديهية أو فرض لا بد من التسليم بصحته ، ولا يكاد يكلف نفسه عناء التدليل عليه ؛ فتعاقب الأجيال هناك تعاقباً سريعاً متلاحقاً بسبب قصر الأعمار وكثرة النسل ، يوحى إلى الإنسان إيحاء لا يستطيع أن يفرّ منه ، بأن القوة الحيوية تنتقل من جسد إلى جسد — أو بأن الروح تحلّ بدناً بعد بدن ، إذا عبرنا عن الأمر بعبارة لاهوتية — ؛ ولقد طافت الفكرة برأس بوذا مع مَرّ الهواء فى أنفاسه ؛ فهذا الهواء يدخل شهيقاً ويخرج زفيراً هو الحقيقة الواحدة التى لم تشك فيها قط على ما يبدو(٧٠) ؛ إنه سلم تسليما بعجلة التناسخ فى دورانها وبقانون « كارما » وتفكيره كله إنما يدور حول سبيل الفرار من هذه العجلة الدوارة ، كيف يمكن للإنسان أن يحقق لنفسه النرڤانا فى هذه الحياة الدنيا ، والفناء التام فى الحياة الآخرة .

ولكن ما « النرڤانا » ؟ إنه من العسير أن تجد لهذا السؤال جواباً خاطئاً ، لأن الزعيم قد ترك الموضوع غامضاً ، فجاء أتباعه وفسروا الكلمة بكل ما يستطيع أن يقع تحت الشمس من ضروب التفسير ؛ فالكلمة فى السنسكريتية بصفة إجمالية معناها « منطفئ » كما ينطفئ المصباح أو تنطفئ النار ؛ أما الكتب البوذية المقدسة فتستعملها بمعان : (١) حالة من السعادة يبلغها الإنسان فى هذه الحياة باقتلاعه لكل شهواته الجسدية اقتلاعاً تاماً ؛ (٢) تحرير الفرد من عودته إلى الحياة ؛ (٣) انعدام شعور الفرد بفرديته ؛ (٤) اتحاد الفرد بالله ؛ (٥) فردوس من السعادة بعد الموت ؛ أما الكلمة فى تعاليم بوذا فمعناها فيما يظهر إخماد شهوات الفرد كلها ، وما يترتب على ذلك للذات من ثواب وأعنى به الفرار من العودة إلى الحياة(٧١) ؛ وأما فى الأدب البوذى ، فكثيراً ما تتخذ الكلمة معنى دنيوياً ، إذ يوصف القديس فى هذا الأدب مزاراً بأنه اصطنع النرڤانا فى حياته الدنيا ، بجمعه لمقوماتها السبعة وهى : السيطرة على

النفس ، والبحث عن الحقيقة ، والنشاط ، والهدوء ، والغبطة ، والتركيز ، وعلو النفس(٧٣) ؛ تلك هى مكنونات النرڤانا ، لكنها تكاد لا تكون عواملها التى تسبب وجودها ، أما العامل المسبِّب لوجودها ، والمصدر الذى تنبثق عنه النرڤانا ، فهو إخماد الشهوة الجسدية ، وعلى ذلك تتخذ كلمة « نرڤانا » فى معظم النصوص معنى السكينة التى لا يشوبها ألم ، والتى يثاب بها المرء على إعدام نفسه إعداماً خلقياً(٧٤) ؛ يقول بوذا : « والآن فهذه هى الحقيقة السامية عن زوال الألم ، إنه فى الحق فناء المرء حتى لا تعود له عاطفة تشتهى ، إنه اطراح هذا الظمأ اللاهث ، والتخلص منه والتحرر من ربقته ، ونبذه من نفوسنا نبذاً لا عودة له »(٧٥) وأعنى به هذه الحمى التى تنتابنا من شهوتنا فى البحث عن أنفسنا ؛ إن كلمة « نرڤانا » فى تعاليم الأستاذ الزعيم تكاد دائماً ترادف فى معناها كلمة نعم(٧٦) وهو رضى النفس رضى هادئاً بحيث لا يعنيها بعدئذ أمرُ نفسها ؛ لكن النرڤانا الكاملة تقتضى العدم : وإذن فثواب التقوى فى أسمى منازلها هو ألا يعود التقىّ إلى الحياة(٧٧) .

ويقول بوذا إننا فى نهاية الأمر ندرك ما فى الفردية النفسية والخلقية من سخف ؛ إن نفوسنا المضطرمة ليست فى حقيقة الأمر كائنات وقوّى مستقلا بعضها عن بعض ، لكنها موجات عابرة على مجرى الحياة الدافق ؛ إنها عُقَدٌ صغيرة تتكون وتتكشف فى شبكة القدر حين تنشرها الريح ؛ فإذا ما نظرنا إلى أنفسنا نظرتنا إلى أجزاء من كل ، وإذا ما أصلحنا أنفسنا وشهواتنا إصلاحاً يقتضيه الكل ، عندئذ لا تعود أشخاصنا بما ينتابها من خيبة أمل أو هزيمة ، وما يعتورها من مختلف الآلام ومن موت لا مهرب منه ولا مفر ، لا تعود هذه الأشخاص تحزننا حزناً مريراً كما كانت تفعل بنا من قبل ؛ عندئذ تفنى هذه الأشخاص فى خصم اللانهاية ؛ إننا إذا ما تعلمنا أن نستبدل بحبنا لأنفسنا حباً للناس جميعاً وللأحياء جميعاً ، عندئذ ننعم آخر الأمر بما ننشد من هدوء .

الفصل الخامس

بوذا فى أيامه الأخيرة

معجزاته — زيارته لبيت أبيه — الرهبان البوذيون — موته

ننتقل من هذه الفلسفة العالية إلى الأساطير الساذجة التى هى كل ما لدينا عن بوذا فى حياته الأخيرة وفى موته ؛ فعلى الرغم من ازدرائه للمعجزات ، إنتحل تلاميذه ألف حكاية عن الأعاجيب التى تمت على يديه ؛ فقد سار عبر نهر الكنج فى لمحة بفعل السحر ؛ وأسقط من يده شظية من الخشب كان يزيل بها ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، فنبتت الشظية شجرة ؛ وعندما اختتم وعظه ذات يوم « اهتز العالم كله من أقصاه إلى أقصاه »(٨٠) ؛ ولما أطلق عليه عـــدوه « ديڤاندانا » فيلاً مفترساً ، « غلبه بوذا بالحب » حتى خضع الفيل له خضوعاً كاملا(٨١) ؛ وقد انتهى « سينارْت » وآخرون إلى نتيجة من أمثال هذه المُلَح ، وهى أن أسطورة بوذا قد تكونت على أساس من أساطير الشمس القديمة(٨٢) ومهما يكن من أمر ، فبوذا معناه عندنا الأفكار التى تنسب إليه فى الأدب البوذى ، ولا شك فى أن بوذا صاحب هذه الأفكار التى كان حقيقة تاريخية .

إن الكتب البوذية المقدسة تصور لنا بوذا فى صورة تشرح الصدور ؛ فقد التف حوله أتباع كثيرون ، وذاعت شهرته فى مدائن الجزء الشمالى من الهند ؛ ولما سمع أبوه أنه على مقربة من « كاپيلاڤاستو » أرسل إليه رسولا يدعوه لقضاء يوم فى مدرج طفولته ؛ وذهب بوذا إلى أبيه الذى كان قد حزن على أميره المفقود ، فسُرَّ أبوه لعودة القديس ساعة من الزمن ؛ وجاءته زوجته التى أخلصت له طوال غيابه عنها ، فجثت أمامه وأمسكت بعقبيه ، ووضعت قدميه حول رأسها ، وقدسته كما تقدس الله ؛ وقص عليه الملك « شُدْذوذانا » قصة حبها له حباً شديداً : « مولاى إن زوجتك حين علمت أنك تلبس رداء

أصفر (وهو ثوب الزاهدين) لبست هى الأخرى رداء أصفر ؛ ولما علمت أنك تأكل وجبة واحدة كل يوم ، أكلت هى الأخرى وجبة واحدة ؛ ولما علمت أنك أبيت النوم على سرير كبير ، نامت هى الأخرى على كنبة ضيقة ، ولما علمت أنك رفضت أكاليل الزهور ورفضت العطور ، رفضتها هى الأخرى » فباركها بوذا ومضى إلى سبيله(٨٣) .

ثم جاءه ابنه « راهولا » وعبر له عن حبه قائلا : « إن ظلك أيها الزاهد ليَسُرُّ النفس » ؛ وضمَّه بوذا إلى طائفته الدينية ، ولو أن أم « راهولا » كانت تأمل أن ترى ابنها ملكاً ؛ لهذا نصبوا أميراً آخر ، وهو « ناندا » ولياً للعهد يتولى العرش حين يحين الحين : لكن « ناندا » ترك حفلة التنصيب — كأنه فى غيبوبة — ، تركها قبل ختامها وغادر المملكة وقصد إلى بوذا ، طالباً إليه أن يضمه هو أيضاً إلى طائفته الدينية ، فلما سمع بذلك الملك « شدذوذانا » حزن والتمس عند بوذا مكرمة ، قائلا له : « لما طلق مولانا هذه الدنيا ، لم يكن ذلك هين الوقع على نفسى ، وكذلك حين غادَرَنا « ناندا » وقل ما هو أكثر من هذا عن فراق « راهولا » إن حب الوالد لولده يخز الجلد واللحم والمفاصل والنخاع ؛ فرجائى إليك يا مولاى ألا تدع أتباعك الأشراف يضمون إلى طائفتكم ابناً بغير استئذان أبيه وأمه » فوافق بوذا ، وجعل استئذان الوالدين شرطاً لازماً لانضمام العضو الجديد إلى طائفته(٨٤) .

ويظهر أن هذه العقيدة الدينية التى أرادت أن تستغنى عن الكهنوت ، كانت بالفعل قد كونت لنفسها طائفة من النساك الرهبان لا تقل خطراً عن كهنة الهندوس ؛ ولن يطول الأمد بعد موت بوذا حتى يحيطوا أنفسهم بكل أسباب المجد التى كان البراهمة يحيطون أنفسهم بها ، ولا عجب ، فأول المتحولين من البرهمية إلى البوذية ، إنما جاءوا من صفوف البراهمة أنفسهم ، ثم تحول إلى البوذية بعدئذ جماعة من أغنى الشباب فى بنارس والمدن المجاورة لها ، واصطنع

هؤلاء الرهبان فى حياة بوذا قاعدة بسيطة ، فكانوا يحيون بعضهم بعضاً ، كما يحيون كل من يتحدثون إليهم بعبارة جميلة هى : « السلام على الكائنات جميعاً »(*) فلم يكن يجوز لهم أن يقتلوا كائناً حياً ، ولم يكن يجوز لهم أن يأخذوا شيئاً لم يعطوه ؛ وكان واجباً عليهم أن يجتنبوا الكذب والنميمة ، وأن يصلحوا ما بين الناس من خصومة ويشجعوهم على الوفاق ، وكان حتماً عليهم أن يظهروا الرحمة دائماً بالناس جميعاً والحيوان جميعاً ، وأن يجتنبوا كل لذائذ الحس والجسد ، فيجتنبوا الموسيقى ورقصات « ناوتش » والملاهى والألعاب وأسباب الترف واللغو فى الحديث والنقاش والتنبؤ بالغيب ، ولم يكن يجوز لهم أن يؤدوا شيئاً من التجارة بكل صنوف البيع والشراء ، وفوق هذا كله ، وكان لابد لهم أن يصونوا عفتهم ، وأن يجانبوا النساء ويعيشوا فى طهر كامل(٨٥) ، ولقد توجهت إلى بوذا التماسات كثيرة ناعمة ، فاستجاب لها وأذن للنساء أن يدخلن طائفته راهبات ، لكنه لم يوافق أبداً من صميم نفسه على هذا القرار ، وفى ذلك قال : « إذا لم تأذن يا أنانداً للنساء بالدخول فى طائفتنا ، دامت العقيدة الخالصة حيناً أطول ، فالتشريع الصالح كان ليقاوم الفناء — بغير دخول النساء — ألف عام ؛ أما وقد أذن لهن بالانضمام إلينا ، فلن يدوم تشريعنا أكثر من خمسمائة عام »(٨٦) ، وكان فى ذلك على صواب ، فعلى الرغم من أن الطائفة العظيمة قد لبثت حتى عهدنا هذا ؛ إلا أنها قد أفسدت تعاليم الأستاذ منذ زمن طويل ، بما أدخلته عليها من سحر وتعدد للآلهة وخرافات لا تقع تحت الحصر .

ولما دنت حياته الطويلة من ختامها ، راح أتباعه يؤلهونه ، لم ينتظروا فى ذلك موته ، على الرغم من أنه كان دائماً يحفزهم على الشك فى صحة ما يقوله لهم ، حتى يفسح كل منهم مجال التفكير الحر أمام نفسه ؛ وورد فى محاورة من أواخر محاوراته :

(*) انظر أيضاً صيغة السلام الجميلة التى يستعملها اليهود والمسلمون] « السلام عليكم ؛ فالناس نهاية الأمر لا يبتغون السعادة ، ولكن ينشدون السلام .

وجاء « ساريپوتا » الوقور إلى حيث كان النبي المعظم ، وحياه وجلس إلى جانبه فى احترام وقال :

« مولاى ، إن إيمانى بالنبى العظيم ليبلغ من القوة بحيث لا أظن أن أحداً فيما مضى أو فيما هو آت ، أو أن أحداً فيمن يعاصروننا ، سواء أكان من طائفة المتجولين أو طائفة البراهمة ، أعظم وأحكم من النبى العظيم . . . فيما يخص الحكمة العليا » .

فأجابه الأستاذ : « كلماتك عظيمة جريئة يا « ساريپوتا » الحق أنك بعبارتك هذه قد رُحت تنشد أغنية كما ينشد النشوان أغانيه ! وكأنى بك — إذن — قد عرفت كل الأنبياء المعظمين فيما مضى . . . وفهمت آراءهم بعقلك . فعلمت كيف كانوا يسلكون وفيم كانوا يفكرون . . . وأى ضروب التحرر قد بلغوا ؟ » .

« لا ياسيدى ، لم أبلغ من الأمر كل هذا » .

« وكأنى بك قد أدركت كل الأنبياء المعظمين الذين سيأتى بهم الزمان . . . وفهمت كل آرائهم بعقلك ؟ » .

« لا يا مولاى ، لم أبلغ من الأمر هذا » .

« إذن فلا أقل يا « ساريپوتا » من أن تكون قد عرفتنى . . . . وأن تكون قد تغلغلت فى ضمير عقلى ؟ » . . .

« حتى ولا هذا يا مولاى » .

« إذن فهأنت ذا ترى يا « ساريپوتا » أنك لا تعلم أفئدة الأنبياء القادرين المتيقظين الذين ظهروا فيما مضى ، والذين سيظهرون فى المستقبل ؛ فلماذا إذن تقول مثل هذه الكلمات العظيمة الجريئة ، لماذا تنطلق منشداً لأغنية النشوان ؟ »(٨٧)

وكذلك لقن « أناندا » أعظم دروسه وأشرفها :

« وإن كل من صار لنفسه — يا أناندا — مصباحاً يهدى ، وكل من صار لنفسه ملاذاً يؤوى ، سواء فى حياتى أو بعد موتى ، فلن يلتمس لنفسه من غير

نفسه مأوى ، وسيستمسك بالحق مصباحاً .. فلا يطلب من غير نفسه ملاذاً — أمثال هؤلاء ... هم الذين سيبلغون أعلى الذُّرى ! لكن ينبغى أن يكون بهم شغف بالمعرفة »(٨٨) .

ومات بوذا عام ٤٨٣ قبل الميلاد ، وهو فى عامه الثمانين ، وكانت آخر كلماته لرهبانه : « والآن أيها الرهبان ، ها أنذا أوجه إليكم الخطاب ؛ إن كل ما هو مركب مصيره إلى الفساد ، فجاهدوا جهاد المخلص الجادّ »(٨٩) .

obeikandl.com